فخر الدين المعني الثاني

ودولة تسكانا

ردّ وايضاح

للخوري بولس قرألي

كنا اعلنّا ، منذ ظهور مجلتنا في القطر المصري ، اننا نتقبل بارتياح كل نقد نزيه مفيد يوجّه الينا ؛ لاننا لا ندّعي العصمة ومعرفة كل شيء. بل نعدّ انفسنا وقراءنا مدينين لمن يدلنا على خطأ ، أو يزيد مرضوعنا ايضاحاً ، « فمن علّمني حرفاً صرتُ له عبدًا ».

وقد تكرّم حضرة الاب لويس الخازن علينا وعلى قراء مجلة المشرق الغراء ، « بكلمة مفصّلة » ظهرت في جزء نيسان. حزيران الاخير (ص ٢٥١—٢٦٣) » لخص فيها مقدمة الجزء الاول من كتابنا المذكور اعلاه ، الموضوع بالايطالية ، وذكر تقسيم الوثائق فيه ، وانتقد منه ما رآه حريّاً بالنقد .

ولا نخفي على حضرته اننا لم نجنِ فائدة من نقده ، ولا استفدنا ملاحظة سديدة نسترشد بها . ونحن نحكم القرّاء بيننا . فنقول :

١ — اول ما نلاحظ عليه في تلخيصه المقدمة تعمّده تعريب كلامنا في معاملة المسلمين للمسيحيين ، دون غيره من الكلام ، ونقله العبارة الاخيرة منه على غير صحتها . فقد قلنا : « بعد ان عاد الصليبيون عن الشرق أمسى مال المسيحي وعرضه ودمه تحت رحمة أحقر المسلمين » . فعرّبها حضرته : « أمسى مباحاً تحت رحمة اي مسلم كان ، مهما سفلت اخلاقه » . والفرق غير يسير بين سافل الاخلاق والحقير الشأن .

٢ — وقد دهشنا كيف اجاز لنفسه تغيير عنوان كتابنا . وزادت دهشتنا لما رأيناه يعلّل جسارته بقوله « والظاهر من هذا الكلام (اي عنواننا) أن المؤلف حصر بحثه في علائق الامير مع دولة تسكانا فقط . بيد انه يتضح جلياً من كلام المؤلف نفسه (وهنا ذكر الصفحات) ، ومن نصّ الوثائق (وجه ١٩٢—١٩٦

ووجه ٣١١) ان البحث يدور حول علائق الامير مع دول الغرب أجمع . وعليه كان الاحرى به ان يسميه « فخر الدين الثاني وعلاقاته مع دول الغرب ».

فنلاحظ على حضرته اولاً اهماله في العنوان اسم « المعني » ، الذي يميز اميرنا عن غيره من حملة هذا الاسم ، وهم كثر.

ونلفت نظره ثانياً الى ان كتابنا عبارة عن مجموعة وثائق خاصة بعلاقات الامير بدولة تسكانا . وما ذكرناه عن علاقاته بغيرها من الدول جاء في المقدمة اتماماً للفائدة ولتفرع هذه العلائق عن علائقه بدولة تسكانا ، وارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً يجعلها من صميم موضوعنا . وقد نبهنا الى ذلك في فاتحة كلامنا عن علائق الكرسي الرسولي (ص ١١٧) وهي اهمها.

وقد اتينا على ذكر هذه العلاقات في المقدمة . والمقدمة ليست من صلب الكتاب. ولم يشغل كلامنا فيها اكثر من عشر صفحات ، من مئة وعشرة ضمناها وصف اخلاق الامير وعدله بين رعاياه وسهره على الامن العام ، وعنايته بالزراعة والتجارة والمالية والجندية والتحصين . وما قام به من الحروب في سبيل الوحدة اللبنانية ، وتوسيع حدود مملكته ، وسياسته مع الدولة العثمانية . وفي آخر المقدمة قلنا كلمة في علاقاته بدول فرنسة واسبانية ومالطه وبالكرسي الرسولي فقط ، لا بدول الغرب « اجمع » ، كما زعم حضرته ، واتخذ من زعمه ذريعة ليفصل لكتابنا عنواناً فضفاضاً سعته مساحة الغرب كله.

هذا ما جاء في مقدمتنا . اما الصفحات ١٩٢–١٩٦ من باب الوثائق فلم نجد فيها شيئاً خارجاً عن الموضوع . ولعله يعني الصفحات ٢٩١–٢٩٦ ، حيث نشرنا رسالتين وجيزتين وجههما اوربانس الثامن الى ملك اسبانية يوصيه فيها بالمطران جرجس بن مارون ، سفير فخر الدين لديه ولدى عاهل تسكانا ، لشد أزر الامير في تخليص الاراضي المقدسة ونصارى الشرق ، وخاصة الموارنة ، من نير الاتراك . وهو ما لا يخرج عن موضوعنا . والوثيقتان مما لا تشغلان اكثر من صفحة من الكتاب ، وهما اثنتان من زهاء خمسمائة وثيقة نشرناها وخصصناها فيه . فهل نجبر لاجلهما على اتخاذ العنوان الطويل العريض الذي فرضه حضرته علينا .

والدول الاربع المذكورة كانت تؤلف «الحلف الصغير» La piccola lega ، الرامية الى حماية النصرانية من تعديات تركية . فكانت طبعاً معادية لها . ولما استنجد فخرالدين ، في السنة ١٦١٣ ، عاهل تسكانا ، على الدولة العثمانية ، اسرع هذا فكتب الى هذه الدول حليفاته ليساعدته على غرضه . فعلاقة الامير بها متفرعة عن علاقاته بدولة تسكانا . والفرع ليس الاصل .

وهل يخلو كتاب من ذكر اشخاص او دول او هيئات او اشياء غير الواردة في العنوان . والا لاستحال الكلام على الكاتب ، وخاصة على المؤرخ ، وكانت اسماء الاعلام الملحقة بجداولها الطويلة في آخر كل مصنف ، خروجاً عن الموضوع .

ولو تمشينا على قاعدة حضرته لما كفانا الغرب كله حداً لعنواننا ، بل تعداه الى الشرق . لان علاقة الامير بدول الشرق كانت واسعة ، لا سيما بدولة تركية ، التي خصصنا لها في مقدمتنا الصفحات ٩٨—١٠٨ ، ونشرنا لها عدة وثائق . فضلاً عن علاقاته بالاقطار والامارات الشرقية الخاضعة للسيادة العثمانية . كالقطر المصري ، وتونس والجزائر ومراكش والهند ، وولايات وسنجقيات سورية وفلسطين والاناضول . فتحتم علينا بعد هذا ان نسمي كتابنا « علاقات فخر الدين الثاني (المعني) مع دول الغرب والشرق أجمع » .

ولو تبعنا منطق حضرته لاضفنا في العنوان الى اسم فخر الدين مئات من الاسماء من معاصري الشرقيين والغربيين ، كان لهم الشأن الاكبر في اعماله وسياسته ، والعلاقات بدول الغرب والشرق . وقد نشرنا لهم عدة وثائق . تجد اسماءهم في جدول الاعلام وفي قائمة الوثائق . وقد يبلغون الالف عدداً . فهل نحشرهم كلهم في العنوان .

٣ — ولامنا حضرته على اننا قدمنا للقراء بعض مؤرخي الامير ، كالخالدي والدويهي وماريتي والاب روجيه ، واهملنا وستنفلد الالماني وبرجيه دسان بيير الفرنسوي . فنرجوه ان يراجع عنوان الفصل الذي ذكرناهم فيه ، وهو « المصادر » . ولما كان الاول قد نقل عن ماريتي ، والثاني عن الاب روجيه ، فاكتفينا بذكرهما في جدول المؤلفين وفي حاشية الصفحة ٢٣ .

٤ ــ ولامنا على انشغافنا بالامير فخر الدين بطلنا.» فلم نصوره كما كان، بل كما نهوى ان يكون . فكان الاولى بمقدمتنا ، التي نعتناها بالتاريخية ، أن نسميها مدافعة ».

فنجيب اننا وجدنا بين الوثائق التي نشرناها تقارير ورسائل تحامل فيها اصحابها على اميرنا ، وتعمدوا الحطّ من قدره وتسويد صحيفته ، لاغراض في نفوسهم . فاصبح من اقدس واجباتنا الرد عليهم والدفاع عن مترجمنا ، اذا كان هناك سبيل للدفاع عنه . فعندنا اقوالهم وبيّنا انهم يناقضون انفسهم بأنفسهم. ولم نأتِ في هذا الدفاع بشيء من عندنا ، بل اسندنا كل كلمة قلناها في مصلحة الامير الى مصدر أصيل ذكرنا مرجعه ليتثبت القارئ من صحته . فهل خرجنا بذلك عن شروط المؤرخ النزيه. وقد اقتصرنا، في دفاعنا ، على اخلاق الامير ، فشغل ثماني صفحات من المقدمة لا غير. فهل هذا القدر الصغير يجيز لحضرة الناقد انكار صفتها التاريخية وتسميتها « بالمدافعة » . مع ان بقيتها ، اي المئة الصفحة والصفحتين ، خصصناها للكلام عن حالة لبنان في عهد الامير من الوجهات الزراعية والتجارية والمالية والحربية والسياسية . كما فصّل حضرته ذلك في كلمته.

نعم لا نخفي عليه انّ من المعجبين بالامير، بل من المنشغفين به والعارفين فضله على طائفتنا وعلى لبنان وعلى الكثلكة في الشرق . وقد تولدت فينا هذه العاطفة لما اظهرت لنا الوثائق عن شخصيته وما تحلّت به من الميزات الفريدة ، من عدل وحلم وبأس ومروءة ووطنية صادقة وعزيمة لا يفلها الحديد ، ورغبة في التنظيم والعمران وتحصين بلاده وتأليف عناصرها وتعزيز قواها ، ونظريات حادة ومشاريع واسعة في سبيل رخائها وضمان مستقبلها ، سعى وراءها جهده حياته كلها وحقق منها قسماً كبيراً بالرغم من الصعوبات الهائلة التي اعترضته . حتى اصبحت شخصيته موضع الاعجاب والاكرام عند الاوربيين انفسهم وكثيرا عنه المجلدات شأنهم باعاظم الرجال. وحاك عامتهم ورواتهم حولها القصص والخرافات كما بينا ذلك في صدر مقدمتنا (ص ٢٣ - ٢٤) . فهل يثقل على طبع حضرته ان نفتخر نحن ايضاً باميرنا ونفاخر بـه اعظم رجال الغرب . فان كنا نعتناه

بيونابرت الشرق ، فلانه خرج مثله ظافرًا ، كما قلنا ، من المعارك العديدة التي خاضها ، ودوّخ كل البلدان المجاورة لبنان ، وضمها اليه من حدود مصر حتى قلب الاناضول . ولم ينخذل سوى في حملته سنة ١٦٢٣ على عرب فلسطين ، الذين كانوا يهربون من امامه ، ويستدرجون جيشه في رمال الصحراء القاحلة لينهكوه عطشاً وجوعاً . ثم ينقضّون عليه بغتة في مكامن ينصبونها له ، كما فعل الروس بعد قرنين بجيش بونابرت . فانت ترى ان وجوه الشبه بين الرجلين كثيرة . وشبهناه ايضاً ، ونحن نكتب للايطاليين ، بفيكتور عمنوئيل الثاني ، لان الامير وحّد لبنان ، الذي كان مجزءا الى خمس عشرة مقاطعة ، كما وحّد ذاك دويلات ايطاليا . فهل في ذلك مبالغة وانشغاف .

ونرى حضرة الناقد يحط من قدر الامير بقوله انه « توصل من الوجهة الحربية الى توسيع حكمه بالدهاء والرشوة اكثر مما فعل بالسيف » . وقد قلنا انه وحّد بالسيف امارات لبنان ، لانها كانت وراثية ، وضم بالعطاء والدهاء سنجقيات فلسطين وولايات سورية والاناضول ، لانها كانت تعطى لمن يزيد في اموالها ويقوم بعهوده نحو الدولة العثمانية . وان الامير كان يفضل بذل ماله على بذل ارواح رعيته ، شأن الحاكم العادل . وهو من هذا القبيل يفضّل على بونابرت . بيد ان هذا لا يبخسه حقه في مزاياه الحربية الممتازة التي بيناها . فضلًا عن ان العطاء لم يكن يكفي لضم السنجقيات والولايات الخارجة عن لبنان ، بل كان يضطرّ دائماً الى استعمال السيف لقسلها والاحتفاظ بها ، مما جعل حياته كلها سلسلة حروب ومعامع فاز في جميعها لشجاعته وحنكته ويقظته ونظام جيشه ، كما بيناه (ص ٢٩—٣٣ و٥٩—٧٠) . وقد شهد له بهذه الميزات الحربية اعداؤه انفسهم ، كالمهندس سانتي الذي قال (ص ٧٣) : ان الدمر كان يعزو الى بأسه لا الى جيشه .

وكنا نعلّل النفس ان يصبح حضرته اكثر انشغافاً منا بالامير بعد ان يطالع كتابنا ، لانه لبناني وخازني ، ونحن لا هذا ولا ذاك . انمي ان فخر الدين اصل نعمة بيته . فقد متّع آل الخازن ، جدوده ، بثمرات فتوحاته ، فنصبهم على بيروت وكسروان والفتوح وطرابلس والجبه ، واولاهم أعلى الوظائف

والمراتب ونفخهم باسمى الالقاب ، كما شرحنا ذلك (ص ٤٠). انني انه صاحب الفضل الاكبر على نهضة لبنان الحديثة ، واستقلاله بحدوده الطبيعية الحالية . فان انكر الجميل وحاول تحقير الامير فنحن لا يسعنا الّا ان نقرّ له بفضله على طائفتنا . فقد ساواها بالمسلمين في الحقوق المدنية ، وحمى بطريركها وافرادها ، وحالفها وساعدها على التبسط في لبنان والجليل . وهو ايضاً صاحب الفضل على نهضة الكثلكة في لبنان وفلسطين وسورية ، كما بيناه (ص ٣٨–٤٨) . فلقبه الاحبار الاعاظم «حامي النصرانية في الشرق» ، ودعوا مملكته «الميناء الامين ، الذي يلجأ اليه المسيحيون من زوابع الاتراك الهوجاء» . وقد تحمس له اغلب من كتب عنه من الاوربيين . افلا يحق لنا ان نتمثل بهم على الاقل ، وهو اميرنا وصاحب الافضال على وطننا وابناء مذهبنا . وهل كان يوماً الشغف بعظيم او بنابغة محرّماً على الكاتب . او كتب للمؤرخ ان يكون خالي الاحساس ، خائناً ، ما دامت العاطفة لا تتغلب فيه على النزاهة .

٥ ــ وقال حضرة الناقد: « بينما نرى المؤلف يحذرنا ان الاب روجيه يميل في رواياته الى الخيال ، نراه يستند اليه في كثير من رواياته ».

قلنا ان الاب المذكور كان طبيب الامير وصديقه الخاص يعرف عنه ما لم يعرفه غيره . فضلًا عن كونه قضى في لبنان شطرًا كبيرًا من حياته . لذلك اخذنا من اقواله ما ليس فيه مجال للخيال . ونبذنا البقية . فلم نلتفت من كتابه اللحم والعظام ، كما فعل حضرته لما اخذ عنه مقاله في فخر الدين ، الذي نشره في « مجلة المنارة » . حتى انه نقل اسم الامير طرابيه ، صاحب غزه ، «طيرابيت» . ولما التقينا بحضرته ولفتنا نظره الى خطاه ليصلحه في بقية المقال ، اجابنا « اسماء الاعلام يجب ان تنقل كما هي » . فقلنا : ولكن هذا الاسم شرقي . فاجابنا : « القاعدة مطّردة » . فقلنا : اذا التقينا مثلًا في كتاب افرنسي باسماء موسى ويسوع ومحمد ، تحتم علينا اذن ، تبعاً لهذه « القاعدة المطّردة » ، ان ننقلها الى قراء العربية : « موييز ، وجاسوس ، وماهوميت » !...

٦ ــ وقال ايضاً : « نرى حضرة الاب قرألي ينذى احياناً ما قاله . فيظهر لنا مثلًا ان فخر الدين مثال العدالة (وجه ٣٧) . ثم يقول لنا (وجه ٩٨)

انه كان يقطع انفاس كل من يتذمر منه ، او يطالبه بعدل ».

فنجيب : لو تروّى حضرته في النصّ ، قبل ان يبدي هذه الملاحظة ، لعرف ان كلامنا لا يعني رعايا الامير بل الامراء جيرانه ، كيوسف باشا سيفا ، والامير طرابيه . فقد كان دأبهما الشكوى عليه الى الباب العالي . اما عبارة « يقطع انفاس من يطالبه بعدل » فلم ترد في كتابنا بل دسّها حضرته علينا . وهو ما لا يجوز شرعاً وذمة .

٧ ــ وتابع حضرته ملاحظاته بهذه : « ان المؤلف لا يقول لنا كلمة تجلو بعض الغوامض ، مما تهم القارئ معرفته . فقد تكلم مثلاً (وجه ٥٠) عن رماد عشبة تصلح لعمل الزجاج . وروى ما قاله الاب دنديني ، الذي ساح في بلادنا سنة ١٥٩٦ ، وذكر انه شاهد في طرابلس خمسين او ستين جملاً محملة رماد عشبة ، كان يرسل الى البندقية لعمل الزجاج . ولم يقل لنا ، ولو في حاشية صغيرة ، هل كان مدار الكلام حقيقة على رماد عشبة ، وما هي هذه العشبة ».

فنقول . اننا وجدنا الرماد مذكوراً في قائمة الصادرات اللبنانية ، فاهتممنا لامره الاهتمام كله . وجمعنا من شتى الوثائق التي لدينا كل ما قيل بصدد تجارته وصناعته . وزدنا القارئ ايضاحاً بكلام الاب دنديني ، الذي افادنا انه رماد عشبة تحرق في حفر خاصة وتصدر الى البندقية والى سائر اوربة لعمل البلّور النقي . ولم يقل لنا اكثر من ذلك . فهل يطلب منا ان نقول ما لا نعرفه . ونراه لامنا اولاً على كلمة قلناها في علاقات فخر الدين بغير دولة تسكانا ، واجبرنا على توسيع عنواننا سعة الكرة الارضية . وها هو الآن يطالبنا بالدخول في ابحاث كيموية وان نحلّل له هذا الرماد لنقول له من اي عشبة يؤخذ . فهل هذا من واجبات المؤرخ .

ويطالبنا ايضاً بان نقول له من هو الحاج كيوان ، ومن هو المطران جرجس ابن مارون ، وغيرهما من الاشخاص المذكورين في الوثائق .

فعجبنا من ابدائه الملاحظات دون تروّ وتمحيص . فقد وفّينا الكلام في الحاج كيوان في عدة مواضع من الكتاب ، خاصة في حاشية طويلة الحقناها بالصفحة ٢١٤ ، حيث لخصنا كل ما يهم القارئ معرفته عنه . واحلنا الراغب

في الاستزادة الى المحبي ، الذي خصص له ترجمة مفصّلة . ولا يخفى ان الغربيين لا يهمهم ان يعرفوا عن المذكور اكثر من ذلك. بيد اننا في الجزء الثاني العربي من كتابنا افرزنا له اكثر من صفحتين (١٢١–١٢٣).

وهكذا قل عن المطران جرجس بن مارون سفير الامير . فقد نقلنا الى القرّاء كل ما عثرنا عليه بصدده في المخطوطات والمطبوعات العديدة التي قلبناها. وذكرنا كل ما عرفناه عن اسفاره وسفاراته واعماله حتى وفاته. ونشرنا له كثيرًا من الرسائل تزيد القرّاء معرفة بشخصه ومهمته . فهل يتوجب على المؤرخ ان يأتي باكثر مما أتينا ، دون ان يخرج عن موضوع الكتاب.

ولم نترك بقية الاشخاص ، الوارد ذكرهم في الوثائق وفي المقدمة ، دون تعريف ، بقدر ما سمح المقام . حتى خفنا من لوم الغربيين على اهتمامنا بكل هؤلاء . ولو تكلف حضرته مراجعة جدول الاعلام ، الملحق في آخر الكتاب ، لوجد لكيوان ثمانية وثلاثين مرجعاً. وللمطران جرجس بن مارون الاهدني خمسة وثلاثين . والجدول مؤلف من اربعة وثلاثين عمودًا بالخط الناعم ، حوى كل منها لا اقل من اربعين اسماً مع مراجعه . وقد اشرنا بالارقام السوداء الى الصفحات التي افرزنا فيها لكل من هؤلاء كلاماً خاصاً. فهل بعد ذلك من مستزيد.

٩ — وختم حضرته كلمته « المفصّلة » بقوله: « ان قيمة الكتاب بما نشره المؤلف من الوثائق التاريخية » . وكان قد استهلها بقوله « للمؤلف فضل الجامع المجتهد ، الباعث بعض الوثائق من مدافنها ». فكأني به يعدّ درس هذه الوثائق والتعليق عليها لا قيمة لها. اي ان المقدمة ، التي عدّها العارفون فتحاً جديدًا في تاريخنا ، لا قيمة لها. مع انها زبدة آلاف من الصفحات المخطوطة او المطبوعة. جمعنا منها شتات المعلومات عن كل مادّة عالجناها في حالة لبنان المدنية والزراعية والتجارية والسياسية والحربية في عهد الامير ، وحللناها ونسقناها حتى جاء الكلام في كل باب وافياً بالغرض بقدر ما وجدناه . وبلغت المقدمة مئة وعشر صفحات . فضلًا عن التعليقات على الحوادث والاعلام الواردة في الوثائق . وهو ما يقتضي من عناء التفتيش ودقة النظر وصحة المنطق ما لا يعرف قيمته الّا من مارسه . وهذا العذر الوحيد الذي ننتحله لحضرته ، شاكرين له على

كل حال عنايته بتقديم كتابنا الى قرّاء المشرق، وإن مشوّهاً . ويصعب على طبعنا مديح عملنا . بيد ان من دلائل قيمة المقدمة ما اقدمت عليه مجلة « المدنية الكاثوليكية » *la Civilta Catholica* ذات المقام الرفيع في عالم الادب بتلخيصها هذه المقدمة في عشر صفحات . مع انها تبخل على اكبر الكتاب باكثر من نصف صفحة . وتكتفي بالاشارة في نصف سطر الى بقية الهدايا الاذبية التي تقدم لها . ونحيل حضرته ايضاً على كتاب صاحب النيافة الكردينال تيسران ، الذي نشرنا ترجمته في « البشير » . وهو كما يعلم من اشهر المؤرخين والنقدة ومن اشدهم وطأة على المؤلفين. وقد كتبه الينا ، كما صرح في صدره ، «بعد ان طالع كتابنا برمته ». ولما ذهبنا لنشكره على هذا التلطف والعطف ، اجابنا : «انا لا املّق احداً وقد امليتُ بنفسي نصّ رسالتي اليك.» وليعلم حضرة الناقد ان المجمع العلمي الايطالي قد عيّن كمادته لجنة خاصة لفحص الكتاب قبل نشره . ولجنة اخرى قبل توزيعه على الجمهور . وانفق عليه عن سخاء زهاء خمسين الف فرنك ايطالي. فهل يقبل كل هذا دليلاً ان قيمة الكتاب لا تنحصر في « جمع بعض الوثائق » بل في درسها. والّا كان للعامل صفّيف احرف المطبعة فعمل الناشر .

زغرتا ، في ٢٧ كانون الاول ١٩٣٧